الأبستمولوجيا والميثودولوجيا والأيديولوجيا

أ.د/ طه العلواني

مقدّمة:

ترتبط المنهجيّة، «الطريقة» في التفكير والتصوّر، في المستوى الأعلى بالمنظور المعرفيّ «الأبستمولوجي» التي تؤسسها، وفي المستوى الأدنى بالأيديولوجيّا التي تنبع عن تفاعل الأبستمولوجيا مع الميثودولوجيا عند النظر إلى تفاعليّة هذه العلاقة بين الأبستمولوجيا –والميثودولوجيا – والإيديولوجيا، يمكننا طرح عدة نقاط:

1- تتأسس الأبستمولوجيا عبر طريقين مختلفين لدى أي جماعة بشريّة، فهي إمّا أن تكون ناتجة عن تفاعل تاريخيّ/ ثقافيّ طويل، تصبح هذه الرؤية المعرفيّة هي التجسيد له عبر تراكم معين، ويصير هناك تواضع بين أعضاء هذه الجماعة البشريّة على تكوين المعرفة وتداولها والصدور عنها وفق إطارات محدّدة يدركونها عبر تفاهم مَا غير مدون فيما بينهم. والطريق الآخر هو «التحوّل الأبستمولوجي» الناتج عن انقطاع معرفيّ معين أحدثته مدخلات خاصّة في الجهاز المعرفيّ لهذه الجماعة البشريّة.

يمكن هنا ضرب مثالين لمثل هذا الانقطاع.

الأول: هو التحوّل الحادث في المجتمع العربيّ البدويّ بعد الرسالة الإسلاميّة، والذي كان أهم الانقلابات المعرفيّة في التاريخ البشريّ...

والآخر: هو التحوّل الذي أحدثه اكتشاف الفحم، والطاقة البخاريّة والثورة الصناعيّة بالتحوّل نحو النموذج الماديّ/ العلمانيّ/ الوظيفيّ الذي قام عليه الأساس الاقتصاديّ الاجتماعيّ للمجتمع الصناعيّ الغربيّ الحديث.

2- في هذا الإطار تتولد «الميثودولوجيا» الجديد، نتيجة حدوث تحولات وانقطاعات جزئيّة أو كليّة في الأبستمولوجيا الكليّة الموجودة في المجتمع. وعلى هذا الأساس يمكن القول إنّ تحولات معينة في المنظور الأوربيّ نحو العالم والكون والمعرفة، نحو إعادة تعريف الطبيعة وموقف الإنسان منها وموقع الإنسان من الوجود منذ عصر النهضة ، كانت هي المؤشر لظهور محاولات منهاجيّة كبرى توفر لهذا التحوّل النموذجيّ

وهذه الرؤية المعرفيّة الجديدة المتولدة عندها تولد الميثودولوجيا من الأبستمولوجيا كما في حالة أوغست كونت "Auguste Comte" وفرانسيس بيكون "Francis Bacon" ، بل كما كان الحال بالنسبة لجاليليو، حيث أن نزع الأسطورة عن تصور الإنسان للكون ، كما كان هو الأساس في السماح بتولد ميثودولوجيا تجريبيّة استقرائية جديدة، تضع تصورًا جديدًا عن العالم مَا يلبث أن يتحوّل إلى أيديولوجيّا شاملة تسقط نفسها على كل قضيّة لتنفي سلطة التصور الدينيّ الكنسيّ عنها وتؤسس المنظور العلميّ المضاد لها.

3- عمليّات الإحياء المنهجيّ الكبرى تبدأ من مراجعة المسلّمات والنماذج المطلقة والتصورات النهائيّة السائدة للنظر في كيفيّة تكونها وشرعيّة وجودها. ولعلّ محاولة رينيه ديكارت (René Descartes) تكون شاهدًا على ذلك، حيث إنّ "مقال في المنهج" و"التأملات في الفلسفة الأولى" كانت تعتبر ناتجة عن لحظات مراجعة عميقة لما هو سائد وفقًا للعودة إلى أصوله التكوينيّة وطرح الأسئلة عنها.

4- تقوم الميثودولوجيا –غالبًا–بدور تحكميّ حاكم وضابط control لاتجاهات التفكير والبحث من أجل أن تأتي النتائج متسقة مع تصور مَا في الرؤية المعرفيّة التي أوجدت هذه الميثودولوجيا. ومن هنا فرص تدعو من جهة إلى التجريب والتدليل بالإثبات verification أو التدليل بالنفي falsification في البحث العلميّ الإغريقي، وتدعو إلى استبعاد العوامل غير ذات الصلة في البحث الاجتماعيّ القائم على نفس هذه المنهاجيّة هي – على الأقل في النموذج الغربيّ–إطار حاكم وضابط وضاغط على البحث والدراسة. وهي قد تدل بذلك على مدى انفتاح أو انغلاق مرجعيّتها الأبستمولوجية ومدى حتميّة أو احتمالية هذه المرجعيّة.

5- يمكن أن تأخذ المنهاجيّة شكل المدرسة الفكريّة التي لها مقولاتها من وجهة وأدواتها وأساليبها من جهة أخرى. وقد تصدر عدة منهاجيّات عن رؤية معرفيّة أو أبستمولوجيات واحدة... وهي في هذه الحالة تأخذ بعض الأبعاد الجديدة بحسب الباحثين أو النظريّين الذين يدخلون تنظيراتهم ومنهاجيّاتهم عليها، ويمكن التمثيل على تلك بعمل من البنيويّة والسلوكيّة والوظيفيّة. فكلها تشترك في رؤية مرجعيّة/ معرفيّة ما، في حين أنّ اختلافها هو بحسب الأداة والأسلوب والموضوع.

6- ترتبط الأبستمولوجيا بالميثودولوجيا في نقطة استكشاف الأبستمولوجيا من خلال أدوات ومناهج الميثودولوجيا، وكذلك إمكان اكتشاف القدرة الاحتماليّة التوليديّة potential للأبستمولوجيا وإمكان إنتاجها لميثودولوجياتها.

7- تطبيق الميثودولوجيا في مجال دراسيّ أو بحثيّ أو في عمليّة تفكير وتنظير يعتمد إلى حدّ كبير على ترتيب ذهن mind set معين، يقوم مقام الشفرة الرمزيّة code مَا بين جمهور المشتغلين والمتعاملين مع هذا الأمر. ومن هنا تأتي العديد من المنهاجيّات لتكون جزءًا من الرطانة jargon مَا بين المشتغلين بعلم اجتماعيّ معين، بدلا من أن تكون أداة محايدة غير معلومة النتائج سلفًا عند دراستها للظواهر وموضوعات البحث.

8- عند التعامل مع قضيّة الميثودولوجيا لا بد من الإشارة إلى ظهور فئة مَا من «المتمنهجين» الذين يمثلون انحيازات معينة إلى رؤى إيديولوجيّة بعينها، لا يتم الإعلان عنها إلّا من خلال التمسك المفرط بقوالب منهجيّة معينة تؤدي إلى نتائج تدعم مدى هذه الإيديولوجيا.

9- عند الوصول إلى لحظة الإيديولوجيا تكون المينودولوجيا قد نجحت في إكمال مهمتها بتحويل الرؤية المعرفيّة الأبستمولوجية من تصورات ومنظورات فلسفيّة وأسلوب للإدراك إلى مقولات ثابتة وجاهزة وجملة من الأفكار والأحكام النهائيّة المترابطة. ولا بد من القول إنّه ليست كل أيدلوجيا هي في موضع الإدانة أو الرفض أو عدم الاعتراف لمجرد كونها «أيديولوجيّا»... بل إنّ العامل الأهم هو مدى اتساق وتماسك ومدى فعالية ومصداقية التسلسل الناظم لكل من الأبستمولوجيا والميثودولوجيا والأيديولوجيّا.

10- تقع الميثودولوجيا في الوسط مَا بين الأبستمولوجيا والإيديولوجيا، وهي بالتالي تقوم بمقام الرابط بينهما والموصّل لكل منهما إلى الآخر.

ومن هذا الجانب تعتبر الميثودولوجيا هي الجزء الأكثر حراكيّة وحيويّة وديناميكيّة في هذا الثلاثيّ. وهي تتجاوز الاستاتيكيّة المميزة لكل منهما إذ تتحرك حتى مع كل حالة دراسيّة ومع كل ظاهرة تتطلب تحويرًا منهاجيًّا للتعامل معها. ومن هنا فإنّ انفتاح الأبستمولوجيا يعطي مساحة أكبر لتطوير ميثودولوجيا أو ميثودولوجيات أكثر قدرة على دراسة الظواهر وبيان تضاعيفها.

11- قد يتم استخدام الميثودولوجيا بشكل عمدي أيديولوجيّ لتقوم بتدعيم الأيديولوجيّا والتصديق عليها (كما في الحالة حيث كان العلم الاجتماعيّ مشغولًا بتأكيد مسلّمات ومقولات الإيديولوجيا الاشتراكيّة أكثر من انشغاله بدراسة الظواهر نفسها). وفي هذه الحالة تحل الإيديولوجيا بمقولاتها النهائيّة محل الميثودولوجيا ويتوارى العمل البحثيّ خلف الدعاية للنظريّة القائمة.

12- يمكن أن تستخدم الميثودولوجيا في تفكيك الإيديولوجيات المختلفة، حيث إنّها ستكشف عن كيفيّة تكون المقولات الخاصّة بهذه الإيديولوجيا من ناحية، كما يمكنها أن تكشف البعد الأبستمولوجيا الحاكم لهذه المقولات والمؤدي إلى إنشائها.

من هنا فإنّ البحث المنهاجيّ يمكن أن ينصرف إلى تحليل وتفكيك الإيديولوجيا وليس مجرد بحث ودراسة الظواهر والحالات.

13- الجينالوجيا يمكن اعتبارها إحدى الميثودولوجيات النقديّة، حيث إنها تقوم بممارسة الحفر المعرفيّ لكشف تكوينية الأفكار وتأثيرات السياقات المختلفة عليها.

وبتطوير الجينانولوجيا يمكن استخدامها في رسم «خرائط التكوين» للمباحث والمقولات والإيديولوجيات الكبرى، بل ورسم خرائط تكوين غيرها من الميثودولوجيات الوضعيّة.

المنهاجيّة بين الشك واليقين:

يؤرخ لميلاد الفلسفة الحديثة رينيه ديكارت (René Descartes). وهي الأعمال التي اعتمدت مفهوم «المنهج» بشكل أساس من خلال تأسيس عقليّ مبني على التأثر بالرياضيات ومن هنا يقول ديكارت: «إنّ علينا أن نصف بالزيف جميع هذه الأشياء التي قد نتشكك فيها». وبحسب ريتشارد شافت فإنّ مقصد ديكارت من هذا هو ليس وصف الأشياء التي يحتمل أن تتعرض بالشك بأنها مزيفة، ولكن هو يعني أنّ علينا ألّا نصف أي شيء من الأشياء بأنّه حقيقيّ مَا لم يكن بمقدورنا أن نثبت حقيقته.

ومن هذا المعيار كان تأسيس المنهاجيّة في الغرب مبنيّ على الإثباتيّة أو الثبوتيّة، وهو مَا يعني وجود منحى عقليّ أوربيّ يعتمد «الإطلاقيّة» في الحكم بسبب التشكك السابق في كل مَا هو ميتافيزيقيّ أو ما ورائيّ أو دينيّ (بسبب التجربة الكنسية الأوروبيّة)، وقد أدت هذه اليقينيّة والإثباتيّة إلى ظهور المنحى الإمبريقيّ والمنهاجيّات الوضعيّة والفلسفة الحتميّة التي وجدت في الفيزياء القديمة (النيوتونية) سندًا قويًّا لمقولاتها.

أمّا على الجانب الآخر فإنّنا نجد أنّ الإفراط في الإطلاقيّة والحتميّة كان هو السبب المباشر للتحوّل نحو النقيض المضاد في ظل الفيزياء النسبيّة الكوانتمية الحديثة، فحدث انطلاق عنيف نحو النسبيّة واللاإطلاقيّة أو الشكيّة الشعريّة، في اللايقين وفي الحداثة المعاصرة.

إنّ هذه المقدّمة تعتبر ضروريّة لبيان الإطار الحاكم للتطرفيّة الغربيّة منهاجيًّا، ولإعادة النظر في هذه المنهاجيّة للعثور على النقطة المتوازنة الوسيطة التي يمكن استخدامها في إعادة تأسيس وتدوين العلوم الاجتماعيّة وفق منهاجيّات مغايرة...

الميثودولوجيا والحداثة:

يتم تعريف «الحداثة» غالبًا من بابي «الترشيد» أو العقلنة من جانب، أو «العلمنة» من الجانب الآخر. ولم تكن المنهاجيّات الغربيّة إلّا مصداقًا لهذا الفرض من حيث إنّ النزعة الإمبريقيّة (الحسيّة) كانت تفترض كلا من الترشيد (يعني عقلنة البحث وجعله فيما هو ماديّ ومحسوس ومدرك بأبعاده المنطقيّة الرشيدة لا الروحيّة ولا الميثافيزيقيّة) والعلمنة (بمعنى جعله بحث فيما هو دنيويّ ماديّ مدرك ومحسوس بالحواس المباشرة).

وكانت المنهاجيّة الوضعيّة كذلك هي صدق لهذه الحداثة حيث يتم تأسيس المعرفة على العقل البشريّ، وتكون المدخلات كلها من معلومات وبيانات وتكون الافتراضات مقبولة من حيث إمكان التدليل عليها. وهنا يحل الإنسان محل الله في مركز هذا الكون، وتكون هناك نزعة أقرب إلى الإنسان الأعلى الذي ينظر إلى حتميّات هذا الكون وإمكانيّات تطويع شروطه لخدمة لإخضاع الكون / الطبيعة لهذا الإنسان الأعلى.

أمّا الفلسفة التحليليّة ومدرسة فيينا وغيرها فهي صورة أعلى لحتميّات الحداثة وعبادة العقل، وهي إن دلت على شيء فهي تدل على مدى استبعاد الحداثة للعقل البشريّ وسيطرتها عليه حتى إنّه يضع لنفسه قيودًا فوق القيود تُعيقه عن أيّ تفكير خارج الإطار المرسوم له من قبل الحداثة.

وتأتي المنهاجيّة الجدليّة عند هيجل لتكون هي الأخرى مدخلًا إلى المفهوم الحداثيّ، حيث إنّ العقلانيّة الهيجليّة المجردة التي قادته إلى صوغ فكرة الجدل ترتبط من جهة مَا بفكرة «النموذج المغلق» أو فكرة «التصور الخطيّ» النمطيّ للتطور الذي يضع فلسفة التاريخ الهيجليّة في قمة فلسفات التاريخ التقدميّة التي وضعتها الحداثة.

إنّ الخلاصة التي يمكن الوصول إليها هنا، هي أنّ الحداثة بما تعنيه من تطور خطيّ ماديّ وترشيدي عقلانيّ أفرزت بسبب رؤيتها الأبستمولوجية ذلك الإطار الميثودولوجيّ الذي عمل على تدعيم هذه الاتجاهات الحداثيّة وتطوير العلم الاجتماعيّ في اتجاه معين إلى أن حدث الانقلاب الشامل مع ظهور مَا بعد الحداثة.

ميثودولوجيا وما بعد الحداثة:

قبل الدخول في مناقشة مسألة الأبستمولوجيا وفكرة مَا بعد الحداثة، لا بد من وضع تصور حول كيف يتطور العلم في مرحلة مَا بعد الحتميّة أو مرحلة النسبيّة أو مرحلة النماذج المعرفيّة الجديدة التي تتأسس فيها التصورات العلميّة نتيجة للانقطاعات المعرفيّة أو نتيجة الثورات العلميّة. إنّ العلم الحديث القائم على الاحتماليّة والافتراضيّة وإلى حدّ مَا النماذج الافتراضيّة virtual paradigms صار يعطي فرصة كبيرة لاستدماج منهاجيّة جديدة أكثر مرونة وقابلة للتعامل مع الأبعاد الماورائيّة والميتافيزيقيّة وعدم استبعاد أي جوانب في الظاهرة الإنسانيّة. لكن من جهة أخرى لا بد من القول بأنّ العلم الاجتماعيّ لم يشهد مثل هذا التطور، حيث إنّ واقعه لم يزل مجزأ مَا بين النزعات الإمبريقيّة والبنائيّة والوظيفيّة القديمة من جهة، والنزعات التفكيكيّة والفوضويّة (في مجال الإنسانيّات تحديدًا) من الجهة الأخرى.

لم تزل هناك حالة فراغ مَا تستحق الزيادة لعدم إمكان تشكيل نماذج جديدة في العلم الاجتماعيّ تستجيب للتطور الحادث في فلسفة العلم الطبيعيّ من جهة وللظرف التاريخيّ الإنسانيّ الجديد من جهة أخرى.

ربما أمكن القول أنّ روافد معينة تمثل أعلى مراحل الحداثة فلسفيًّا وأقرب مراحلها إلى مَا بعد الحداثة هي الأكثر تسيدًا على الساحة الآن، وهي على وجه التحديد، الوجوديّة والعدميّة والسيرياليّة (ومن هنا يمكن القول أنّ التفكيك عن دريدا (Jacques Derrida) وغيره هو جماع لتلك الروافد، إضافة إلى انشغال تفكيكيّ مَا بفلسفة اللغة نحو نسبيّة المعنى ونسبيّة الدلالة والتباس مَا في علاقة الدال والمدلول).

نحو ميثودولوجيا جديدة وعلم اجتماعيّ جديد (رؤية إسلاميّة):

إنّ بناء ميثودولوجيا جديدة يعني في المقام الأول البناء على كافّة المحاولات والميثودولوجيات النقديّة التي طرحت نفسها كتصورات مغايرة أو بدائل للميثودولوجيات الحداثيّة الكلاسيكيّة.

والخطوة التالية، والتي تسمح بإعادة النظر إلى تراث العلوم الاجتماعيّة هو تفعيل الجينالوجيا الجديّة في دراسة بنية وتكوينية العلوم الاجتماعيّة وكشف الرؤية الأبستمولوجية التي صدرت عنها والاقترابات المنهاجيّة التي ولدتها وصاحبت نشأتها وتطورها.

هذه الجينالوجيا يمكن أن تستفيد من عمليّة الحفر المعرفيّ؛ لتؤكد على أنّ العلم الاجتماعيّ الحداثيّ هو تطوير للحتميّة في الاتجاه العام للفلسفة الغربيّة، و بالتالي ستتمكن من معرفة الكيفيّة والطريقة التي تتم بها عمليّة «التنظير» أو التي يقوم بها المنظّر بتوليد أفكاره ورؤاه لصياغة أفكاره ومقولاته.

معرفة أسلوب التكوين وعمليّة التنظير هو في حدّ ذاته إطار يساعد على اكتشاف بنية العلم الاجتماعيّ، وبالتالي الكشف عن إمكانيات وأدوات بناء علم اجتماعيّ بديل أو جديد.

بهذا المعيار، يمكن للعلم الاجتماعيّ أن يعين بناء نفسه وفق رؤى ومعطيات ومنهاجيّات جديدة، دون الحاجة إلى مجرد التشابه مع العلم الاجتماعيّ الحداثيّ السابق لا في المصطلحات أو الموضوعات أو المناهج؛ بل البداية من أساس مرجعيّ جديد يعيد حتى مجرد تصنيف العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّات عندها يمكن بناء علوم جديدة بمسميات وأطر مختلفة تمامًا وليس مجرد علم اجتماع أو علم نفس أو علم اقتصاد بديل أو جديد. عندها يمكن —من وجهة

النظر الإسلاميّة–إعادة بناء وتبويب المصطلح الإسلاميّ وفق المنهجيّة الإسلاميّة الأساسيّة (المنهجيّة القرآنيّة) وبناء العلم المعرفيّ والاجتماعيّ الإسلاميّ من خلاله بشكل مستقل عن العلم المعرفيّ والاجتماعيّ الغربيّ. عندها لن تكون العمليّة هي عمليّة العثور على مقولات وأفكار علم اجتماعيّ إسلاميّ يتشابه أو يختلف مع ذلك الغربيّ أو البحث في تأسيس علم اجتماعيّ إسلاميّ بديل وموازي لذلك الغربيّ. بل ستكون الصيغة تمام الاختلاف من حيث إنّها تدوين لمعرفة ومنهاجيّات جديدة تمامًا قد تتسمى بمسميات مختلفة (مثل علم العمران، وعلم الحضارة، وغير ذلك).

على أي حال، تبقى المنهاجيّة محدّدًا أساسيًّا في ذلك المجال من حيث عملها التفكيكي النقديّ في المرحلة الأولى وعملها التأسيسيّ التنظيريّ في المرحلة الثانية. المهم هو اكتشاف الذات حيث إن اكتشاف المنهاجيّة القرآنيّة ومدى كشفها للمنهاجيّات الأخرى وهيمنتها عليها هو الخطوة الأولى.